http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1508) السنة السادسة ـ السبت (16) ايار 2009

شارع الرشيد.. محطات تنبض بالحياة من (حافظ القاضي) حتى جسر الجمهورية

٣-٣
كتابة وتصوير
كاظم الجماسي

يمكن لمن يلقي نظرة على دجلة المحاذي لشارع الرشيد أن يرى نهرين، دجلة ونهرا آخر محاذياً يجري على البر، ينوء بحمل اعداد كبيرة من البشر والاليات والبضائع، فضلا عن بنايات مرفوعة بأعمدة اسطوانية على امتداد ثلاثة كيلو مترات ومائة وعشرين مترا هي الطول الكلي لشارع الرشيد. في عطفة من ساحة حافظ القاضي، وعلى ناصية رصيف الشارع كانت صينية سمك الجري المقلي بالزيت عامرة بقطع متوسطة الحجم، قهوائية اللون تثير شهية الرائي، سيما حين يراها محاطة بالطرشي والعمبة والليمون الحامض.

سألنا صاحب بسطة الجري السيد أبو نور عن احوال العمل هذه الايام؟

فأجابنا: بخير، العراقيون ذواقون، وأكلة الجري المقلي لها زبائنها، وانا في هذه المهنة منذ عشر سنوات. زبائني لم ينقطعوا عني في احلك الظروف. ثم سألناه عن مصدر بضاعته فقال: اشتري كميات من السمك من علوة الرشيد لإن الجري فيها اكبر حجما وانسب سعرا. وعن معوقات عمله اشار الى جهود امانة بغداد في رفع النفايات، وطالبها باكساء الارصفة التي رفع عنها البلاط منذ اكثرمن سنة وظلت ترابا اجرد..

تخلصنا من قبضة ابو نور بصعوبة بالغة، اذ امسك بنا بكرم وطيبة اهل بغداد الاصلاء، داعيا أيانا لتناول وجبة غداء من سمكه اللذيذ، غير ان الوقت لم يكن ظهرا، بل كان اول الصباح...

في واجهة البناية التي تحتل قلب الساحة، والتي تأخذ شكل السمكة، كانت لافتة احد المحلات تقول (الدقيقة للبصريات) فتعود بك الذاكرة الى الماضي القريب حين كان هنا معرض كبير للشركة العامة للاجهزة الدقيقة وكان ضاجا بمختلف الاجهزة الدقيقة ومن افخر المناشئ والماركات العالمية وباسعار مناسبة ومحدودة. استقبلنا السيد ابو احمد صاحب محل العوينات مرحبا،واجاب على سؤالنا عن طبيعة عمله قائلا: عملنا اختصاص بتجارة العوينات الطبية بكل مايتعلق بها من انواع العدسات والاطارات والوصفات الطبية الخاصة بعيوب البصر. وبضاعتنا نستوردها من الصين، والمنتوج الصيني كما يتبادر للذهن ليس جميعه رديئا، بل ان له مستويات بالجودة والامر مرهون بطلب التاجر. زبائننا معظمهم تجار مفرد في بغداد والمحافظات، كما أن عملنا يحتاج الى نوع من التخصص لتقدير الحاجة الفعلية لمستخدم النظارة أو المريض.

وبشأن المشاكل والمعوقات التي تعترض عمله اوضح ابو احمد قائلا: لم يزل الامان غير متحقق بصورة كاملة، وفيما لو تحقق سوف يستمر يومنا في العمل الى المساء، بدلا من انتهائه قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، كما نعاني من مشكلة كثرة الخائضين بالعمل في هذه المهنة، وقد اشتكت الجمعية العراقية البصرية لدى مديرية التقييس والسيطرة النوعية الدخلاء على المهنة والاستيراد العشوائي للبضاعة الرديئة، ولكن من دون جدوى...

على بعد عدد من المحلات المغلقة أغلبها من (الدقيقة للبصريات) كان مكتب شركة الجرف للسفر والسياحة يفتح ابوابه. استقبلنا السيد عباس طه وهو شاب في العشرينيات مرحبا بنا ومبتدئا الحديث عن احوال الشركة بالقول: طبيعة عملنا غالبا نقل المسافرين وقليلا نقل البضائع من العراق الى الخارج وبالعكس. وعملية نقل المسافرين تشتمل على تنظيم سفرات سياحية، والحصول على تأشيرات الدخول للمسافرين من السفارات في حال تواجدها هنا او من خلال عواصم الدول المجاورة. وبشأن واقع المهنة بين الامس واليوم أوضح أنها شهدت مدا وجزرا كبيرين، ويرتبط رزقنا بنحو مباشر باستقرار البلد من الناحية الامنية والاقتصادية. وقد لحقت بنا خسائر واضرار كبيرة جراء سوء الاوضاع الامنية في الاعوام السابقة،اذ فقدنا عددا من الاخوة العاملين بالمهنة،فيما قمنا ايام الحصار بدور اقتصادي مهم اذ نقلنا الكثير من البضائع سواء المعدة منها للتصدير او للاستيراد. اوضاعنا الحالية تشهد تحسنا واقبالا على السفر سواء من اجل السياحة او من اجل الاعمال التجارية.

الفول المدمس والسينما والعطور

ونحن نشرع بالدخول الى محطتنا الثالثة للثلث المتبقي من شارع الرشيد بدءا من ساحة حافظ القاضي، عدنا نتفحص واجهات البنايات ولوحات الاعلان عن المحلات، لفتت نظرنا لوحة محل كتب عليها (مأكولات ارز لبنان) فعاد بنا شريط الذكريات الى زمان السبعينيات من القرن المنصرم. اذ كانت الحياة البغدادية، بل العراقية برمتها، في ذروة الاحتدام والتوهج، وكان هذا المطعم الذي يحتل ركن الشارع قبالة ساحة حافظ القاضي، يشكل محطة استراحة من عناء النزهة في اروقة شارع الرشيد. يكون بمقدورك ان تستمتع بتناول ماعون فول بالزيت والشطة او ماعون كبدة دجاج محموسة، او ماعون حمص بطحينة او لفة فلافل مع شتى انواع المقبلات اللبنانية والسورية...

خلف منضدة طولية كان السيد جلال عبد الودود وهو من الاشقاء السوريين واقفا بجوار عمال المطعم المنهمكين باعداد الوجبات وتجهيزها، يستلم حساب الزبائن ويساعد في تقديم الوجبات. تحدث الينا قائلا: فتحت هذا المطعم عام (١٩٦٨) ومنذ ذلك التاريخ تضاعف عدد الزبائن الذين يرتادون المطعم من مختلف مناطق بغداد، الزبائن عمال وحرفيون واصحاب محال وورش ومعامل مجاورة، وتتميز مأكولاتنا بنكهة شامية خاصة. كما تذوق مأكولاتنا العديد من الاساتذة والادباء والفنانين، وكنا ايامئذ نستمر بتقديم خدماتنا لما بعد منتصف الليل، اما اليوم فتغلق المحلات والورش والمعامل ابوابها وتفرغ الشوارع تقريبا، قبيل الساعة الثالثة عصرا....

وعن موضوعة الخدمات، اشتكى السيد جلال من رداءتها سواء كانت في مجال النظافة او مجال الكهرباء والماء، كما اكد على وجوب قيام الاجهزة المعنية بحملة شاملة وجذرية لتأهيل وتطوير شارع الرشيد بوصفه معلما سياحيا جاذبا يحتل قلب بغداد النابض..

على الضفة الاخرى من الشارع، وبالقرب من موقع سينما (علاء الدين) التي امست كما يقال أثرا بعد عين، اذ لم يبق منها سوى لوحة الاعلان المنقوشة على اعلى واجهتها الامامية، فيما صار مدخلها مكبا للنفايات ليس الا، على مقربة منها كان هناك محل صغير مختص ببيع مستحضرات التجميل وانواع العطور. يقف في داخله السيد علي اللامي، شاب يربو عمره على الثلاثين، أخبرنا ان محله الصغير يكاد يختنق بين ماتعرضه المحلات الكبيرة المجاورة من مكائن ومطافيء حريق ومعدات انشائية على الارضفة، وعندما سألناه متى كان قد حدث هذا؟ أجاب: بعد التغيير،أصحاب (الفلوس) هرعوا لشراء المحلات من اصحابها القدامى فتغير وجه الشارع وأرتفعت ايجارات المحلات، ما أثر علينا وعلى ارزاقنا بنحو سلبي.. وصرنا هنا في هذا الشارع كما في البحر السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة. أما بشأن الخدمات فأوضح السيد علي قائلا: ان امانة بغداد مشكورة تقوم بالتنظيف اليومي والكهرباء في تحسن ونتمنى على الله ان يعم الخير على الجميع.

(الاورزدي).. وخراب البصرة

تقودنا الخطى على الارصفة الترابية لشارع الرشيد فنصل الى ماتبقى من بناية(الاورزدي) فنصاب بذعر حقيقي. أيعقل ان يكون مصير (الاورزدي) بهذا البؤس والخراب؟ هذا المكان الذي كان واحة حقيقية تضج بمباهج الحياة بدءا من طابقها الارضي وحتى طوابقها الاخرى وصولا الى (منتجع) الكافتريا في الطابق العلوي، حيث تلتقي العوائل والاصدقاء والعشاق لتناول (الايس كريم)، بعد ان يكونوا قد تبضعوا حوائجهم ذات المناشئ العالمية والجودة الفاخرة. بناية الاورزدي اليوم ليست سوى بناء خرب مغلق الواجهات بالطابق المكشوف، وحين تقترب منه تزكمك روائح الخراب العفنة. في الصوب المقابل من الشارع حل الخراب بسينما الوطني فتحولت الى محض محلات ليس من جامع يجمعها. لم يتبق منها سوى لوحة اعلان مخربة تخبرنا عن ماضي مليء بالعواطف والدموع والابتسامات كانت تتفاعل مع كل لقطة ومشهد من افلامها الهندية والعربية والامريكية. على مقربة من سينما الوطني تتناثر على الرصيف حقائب من مختلف التصاميم والاحجام، تحاول ان تجد لها مكانا بين حشود من المعدات وقناني الحريق وعلب الزيتون المركونة على الجانبين.

السيد محمد محسن الزيادي صاحب محل الحقائب حدثنا قائلا: انت تعرف ماذا يعني شارع الرشيد.. فهو مضرب المثل في كونه مرفقا سياحيا نموذجيا حيث كان السياح الاجانب يأتون الى هنا من مختلف دول العالم القريبة منها والبعيدة. يتبضعون ويتنزهون فيه وعلى ضفاف دجلة، دجلة العطشان، اذ دموعنا اكثر من مياهه الضحلة. وعن طبيعة ومعوقات عمله اخبرنا السيد الزيادي قائلا: عمر هذا المحل اكثر من ثلاثين سنة، وفيه نعرض انتاجنا المحلي الذي يضاهي الصناعة العالمية ولكن بعد سقوط الصنم عمت الفوضى في السوق ومن ضمنها شارع الرشيد. راح أصحاب رؤوس الاموال يعبثون بمصالح الناس وطبيعة الشارع الاصلية بشرائهم المحلات من اصحابها ومن ثم تتحول طبيعة عمل المحل على نحو نقيض بوظيفته الاصلية.

واشتكى السيد محمد من حالة افرزتها الاحداث المتتابعة بعد التغيير، تمثلت بالكثير من محدثي النعمة الذين راحوا يشترون الاملاك والعمارات من ملاكيها الشرعيين ثم يقومون باخلاء المؤجرين وفرض مبالغ خيالية ك(سر قفليات) وايجارات باهظة تكسر الظهر. وعمارتنا من هذا النوع. اذ قام احدهم وهو يعيش في الامارات بشرائها ويبتغي اخلاء ثمانين محلا، مايعني قطع ارزاق ثمانين عائلة تعتاش على هذه المحلات..

على رصيف الجهة المقابلة تزدحم العدد والمكائن الانشائية والصناعية، امام واجهة محل عريضة نسبيا، حين دخلنا كان السيد شاكر محمود السامرائي صاحب المحل باستقبالنا. عن طبيعة عمله اخبرنا قائلا: عمر هذا المحل خمس سنوات وكان سابقا محلا للالبسة الرجالية ونحن هنا الوكلاء المعتمدون لشركة (بيتا) الايطالية، وبضاعتنا تمتاز بالمتانة والجودة الاوروبية، ولذا هناك فارق بين اسعار بضاعتنا واسعار البضائع الصينية التي يتخم فيها السوق. وبشأن معاناتهم وما يعترض عملهم افاد السيد شاكر: نحن نعاني كثيرا من الغش الصناعي اذ قام بعض الدخلاء والطارئين على السوق بتقليد ماركة (بيتا) ووضعها على عدد ومكائن صينية بالغة الرداءة وتباع بأسعار واطئة جدا. اما الخدمات فانها ضعيفة، واذا ما جاء البعض من عمال الامانة ورفعوا بعض النفايات طالبونا بالمقسوم أي مايسمى الاكرامية، الامر الذي يتكرر كل اسبوع. اثناء تجوالك في اروقة هذا الشارع العتيد، تثير في وعيك اعمدة اروقته وواجهات بناياته الموغلة في القدم، صورا من شريط الذكريات، لحظات تألقه وفترات خفوته، اذ ظل يمثل في الحالين وعاء تاريخيا لذاكرة شعب ذاق الكثير من المرارات والنزر اليسيرمن الافراح. كم من احداث كان لها اثر في تغيير وجهة حيوات الناس، وكم من بشر كان لهم فعل حرف سير الاحداث عن مجاريها. العلامات التي على جدران هذا الشارع وعلى اعمدته لم تزل تختزن وتنطق بالكثير وهي ليست بحاجة سوى لأ ن ننصت لما تقول.

اطلال برج السنك وزيوت المكائن

ونحن نقترب من جسر السنك، كان برج الاتصالات الواقف عند خاصرة الجسر، اشبه بمارد مهشم الاطراف مثقوب البطن، والاسوداد الناجم عن الحرائق التي نشبت فيه لم تزل توشح حواف جروحه، وهنا يداهمك التساؤل متى سيستعيد هذا الهرم الجميل بهاءه، سيما وهو يدخل سنته السابعة بعد التغيير؟!...

عبرنا من تحت جسر السنك وخلفناه وراءنا، توقفنا امام واجهة محل كبير يبيع الزيوت والدهون الصناعية بمختلف انواعها ومناشئها. رحب بنا السيد كريم جمال طارش صاحب المحل وحدثنا عن شؤون وشجون عمله قائلا: عمر هذا المحل سنة واحدة فقط، ولم يكن قبل هذا التاريخ سوى معرض للالبسة والكماليات، بضاعتنا استيرادنا الشخصي، وجميعها من مناشئ أصلية، سعودية واماراتية وكويتية. حركة العمل تشهد فتورا شديدا، والسبب يعود في تقديري الى تقليص الميزانية وتأثيرات الازمة الاقتصادية العالمية على اسواقنا.

وبشأن مايعترض عملهم من معوقات، اشار السيد كريم الى ان امانة بغداد تفرض رسوما باهظة على لوحة الاعلان وعلى المهنة، متبعة تخمينات وفقا لاهمية الموقع تجاريا، كون محلنا يقع في شارع الرشيد، لذا تطالبنا الامانة اليوم بدفع رسم اعلان قدره(٢٥٠) الف دينار ورسم مهنة قدره(١٠٠)الف دينار. واعتقد مثلما يعتقد غيري من اصحاب المحلات ان هذه الطلبات غير واقعية، نظرا لفتور حركة البيع هذه الايام، كما نعاني من مشكلة اخرى تتمثل بانتشار ظاهرة الغش الصناعي، اذ يجري غش في العلامات التي توضع على علب الدهون من اجل تقليد ماركات الدهون الاصلية التي نتعامل بها. انتشرت هذه الظاهرة بعد سقوط النظام السابق وغياب متابعة الامن الصناعي ورقابة السيطرة النوعية، وقد سمعت مؤخرا ان هناك حملة ضد هذه الظاهرة في مناطق متفرقة من بغداد ومنها منطقة المستنصرية.

خرائب الثقافة

غادرنا محل بيع زيوت المكائن وقادتنا خطانا الى حيث بناية منتدى المسرح فدفعنا الفضول لمعرفة احوال هذا المكان الذي شهد ابان التسعينيات من القرن المنصرم، وماتلاها، مناهج حافلة بالتجريب الرصين في حقل المسرح والفنون الدرامية الاخرى. فمن منا ينسى (ترنيمة الكرسي الهزاز) أو(النهضة) او (اشارة مرور) او (بستان الكرز) او (موزارت وساليري) او..او ما يضيق المجال بذكره من مسرحيات وندوات وحفلات موسيقية رصينة لفنانين من مثل حسن بريسم وكريم منصور وغيرها من النشاطات التي ضمتها غرف وصالات منتدى المسرح وشرفاته ذات الطرز البغدادية الاصيلة. وحين استأذنا من شاب كان يجلس على درجة من درجات سلم عتبته، قادنا الى حيث المسؤول عن حراسة المكان الذي اعتذر عن الادلاء بأي رأي لانه غير مخول. ومدير المنتدى السيد مثال غازي غير موجود حاليا، ولكن استطعنا ان نعرف منه ان عائدية المكان لوزارة المالية، وان هناك نشاطات جرت في غرف وصالات المنتدى منها تصوير بعض مشاهد مسلسل بيت الطين وابو طبر وبعض مشاهد الفيلم الروائي (الكرنتينة) لعدي رشيد. وبالاجمال فأن هناك الكثير من الثلمات والتصدعات في بناية منتدى المسرح، حتى استطيع القول البناية برمتها بحاجة ماسة لاعادة تأهيل كاملة.

كلما خطوت الى الامام وأنت تقترب من جسر الجمهورية، خاتمة طوافنا في شارع الرشيد، يتردد ذات السؤال في دواخلك:كانت هنا دار سينما اين ولت؟ كان هنا مقهى ماذا صار؟ كان هنا مسرح كيف تحول؟ كان هنا.. كانت هنا.. فما الذي حصل؟ انت الان امام موقع سينما روكسي او مسرح النجاح، وليس من اية دالة لا على السينما ولا على المسرح..ليعود السؤال: كانت هنا.. كان هنا...، تعبر المكان اسفا، مبللا بعرق مابعد الواحدة ظهرا في نهار مشرق من نهارات مايس او ايار. تجتاز مدخلا فرعيا يستطيل منه شارع الخيام الشارع المعروف بكثافة متاجر الالبسة الجاهزة تتخللها سينما واحدة (سينما الخيام)، كانت يوما ما في منتصف الشارع، وعدد من محلات بيع الكاسيت.. يتضاعف الاسى في جوارحك فتلجأ الى مقهى عند مدخل الخيام عبارة عن مصاطب بسيطة موزعة على رصيف (الرشيد) تطلب ماء وشايا، ثم تستثار بعبق دخان الاركيلة التي يدخن (معسلها) الجالس جوارك. تطلب واحدة لنفسك لعل أساها يخف اذ لا امل ان يزول. بعد بضعة خطوات يقف خلف واجهة زجاجية اربعة (منيكانات) تماثيل بلاستيكية لرجال يرتدون بدلات عسكرية متنوعة وبرتب مختلفة على اكتافهم. دفعنا الفضول لاستطلاع الامر فكان في استقبالنا السيد كريم صادق(ابو ايهاب) مرحبا ومعرفا بطبيعة عمله: مهنتنا خياطة البدلات العسكرية منذ (٣٥) سنة. ورثت المهنة عن والدي خيطنا بدلات لضباط من مختلف الرتب العسكرية، ونحن مهنيون لسنا معنيين بفلان او علان. هذا هو رزقنا ورزق عوائلنا. عملنا يسير متعثرا، ولكنه في تحسن وتطور. كان موقع المحل سابقا في منطقة (العلاوي) وانتقلنا الى هنا لان هذا المكان يعتبر المركز الرئيس للخياطة العسكرية. وعن مشكلات وعوائق عملهم اجاب ابو ايهاب: المشكلة الرئيسة والحساسة التي نعاني منها هي عدم منحنا اجازات عمل من قبل الجهات المختصة على الرغم من مراجعاتنا الكثيرة، مما فتح الباب واسعا للدخلاء على المهنة الذين ربما كانوا احد الاسباب في تشجيع الارهاب والنصب والاحتيال. يخيطون البدلات العسكرية لكل من هب ودب من دون سؤال عن هوية الزبون ومعرفة ان كان عسكريا ام لا...

(جقماقجي).. ومسك الختام

في ركن الشارع، مسك ختامه، وبواجهة تحتل ضلعين متعامدين من البناية الاخيرة المنسوبة ل(الرشيد)، تقع اسطوانات جقماقجي، المحل مقفل بابواب مشبكة ترى من خلال زجاج نوافذها المهشم، مدى الخراب الذي لحق بهذا المحل الاثير على قلوب العراقيين، من عشاق الطرب الاصيل، حيث كانت (اسطوانات جقماقجي) موئلا للباحثين عن اخر ما سجلته الشركة للمطربين او المقرئين العراقيين، وكانت غاية مناهم ان يحظوا بفرصة تسجيل اعمالهم عند جقماقجي فذلك يعني الانطلاق في عالم الشهرة والغنى. ويذكر ان شركة جقماقجي بدأت اعمالها في مفتتح الخمسينيات من القرن الماضي، وسجلت لمعظم مطربي ومطربات العراق، من مثل شيخ المقام العراقي محمد القبانجي ورشيد القندرجي وحسن خيوكة، كما سجلت لناظم الغزالي وسليمة مراد وزهور حسين ووحيدة خليل ولميعة توفيق، ولم تنس اساطين الاغنية الريفية من مثل حضيري ابو عزيز وداخل حسن و ناصر حكيم وغيره الكثير مما يضيق المجال بذكره. ومن الطريف ان ابن صاحب المحل، على عهدة الباحث الاستاذ باسم عبد الحميد حمودي، اشترك آنذاك بالتمثيل في فيلم (ليلى في العراق) للمخرج ابراهيم جلال اذ يظهر معه في مشهد نزال ملاكمة ليفوز على ابن جقماقجي بمستقيمة، تركت اثارها على انفه. ها نحن نحط الرحال عند نهاية محطتنا الاخيرة في استقصاء الشارع الذاكرة...والشارع الذي من لحم ودم ومشاعر.. كلا الشارعين انتظما في شريط متصل لعل اهم ما يترسب في قرارة النفس من الطواف معه. أسى الانحدارفي وظيفته كمعلم سياحي أساس وامل ليس باستعادة مجد وظيفته تلك بل البدء معه من حيث المستقبل، من حيث صورة الحداثة العابرة لمعرقلات الحاضر والماضي.